الحنين والغربة في شعر الأندلس (دراسة موضوعية)

Nostalgia and Exile in Andalusian Poetry

أعداد

م. م. احمد مزهر شاهر حسين الشجيري

Ahmed Mazhar Shaher Hussein Al-Shajiri

ديوان الوقف السني – دائرة التعليم الديني والدراسات الإسلامية

Presidency of The Sunni Endowment

Department of Education Religion and Islamic Studies

Kxkd028@gmail.com

ملخص البحث

يتناول هذا البحث موضوع الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، مستعرضاً كيف عبّر الشعراء عن مشاعر الاغتراب في ظل النفي والشتات. ويحلل النصوص الشعرية التي عكست هذا الإحساس، مع التركيز على أبرز شعراء الأندلس الذين عاشوا تجربة فقدان الوطن.

يبحث البحث الأبعاد النفسية والاجتماعية لهذه الغربة، ويُظهر كيف تحوّل الحنين إلى رمز للضياع والحرمان، وتجلّى في أشكال فنية متعددة كالرثاء والوصف والتأمل الذاتي. كما يناقش تأثير المنفى في تشكيل الهوية الشعرية، وانعكاسه على اللغة والصور البلاغية.

ويتتبع البحث تطور خطاب الحنين، مبيناً تفاعل البُعد الفردي مع الجماعي، مما منح النصوص عمقاً إنسانياً وثقافياً. ويخلص إلى أن الغربة والحنين لم يكونا مجرد تعبير عاطفي، بل شكّلا وسيلة لمقاومة النسيان، واستعادة الهوية الأندلسية وحفظ الذاكرة التاريخية رغم محنة السقوط والتشريد.

الكلمات المفتاحية: شعراء الأندلس، الغربة، الحنين.

Research Summary

This study explores the themes of exile and nostalgia in Andalusian poetry, highlighting how poets expressed feelings of alienation in the context of displacement and diaspora. It analyzes poetic texts that reflect these emotions, focusing on major Andalusian poets who experienced the loss of their homeland.

The research examines the psychological and social dimensions of exile, showing how nostalgia became a symbol of loss and deprivation. These sentiments were artistically conveyed through elegies, descriptive passages, and introspective reflections. The study also discusses how exile shaped poetic identity, influencing both language and imagery.

Moreover, it traces the evolution of the discourse of nostalgia, illustrating the interaction between personal and collective expressions. Ultimately, the study concludes that exile and nostalgia were not merely emotional responses, but powerful tools for resisting oblivion, reclaiming Andalusian cultural identity, and preserving historical memory despite the harsh realities of loss and dispersion.

Keywords: Andalusian Poets, Exile, Nostalgia.

المقدمة

الحمدُ للهِ الذي علَّم الإنسانَ بالقلم، والصلاةُ والسلامُ على النبيِّ الصادقِ المُكرَّم، وعلى آلهِ وصحبِه الغُرِّ الميامين، ومَن تبِعَهم إلى يومِ الدين. أما بعد:

اختلفت أغراض الشعر، وتعددت مدارسه ومذاهبه، إلا أن الشعراء – باختلاف أفكارهم وتطلعاتهم – أجمعوا على شيءٍ واحد، هو حبُّ الوطن، الذي ارتبط به الإنسان، وسكنه روحًا وجسدًا، وهامَ به حُبًّا وحنينًا. وإذا كانت النفسُ البشريةُ – من طبيعتِها – ترفض البعدَ عن الوطن، فهي بذلك ترفضُ التخلي عن المكانِ الذي ارتبطت به.

لقد كان شعرُ الحنين إلى الأوطان وذكرُ الديار من أرقِّ ما قاله الأندلسيون، لأنه يعبّر عن أصدقِ العواطف الإنسانية والمشاعر القلبية. وموضوعُ الحنينِ والغربةِ في الشعرِ الأندلسيِّ أكبرُ من أن يُلمَّ به في دراسةٍ واحدة؛ وقد جاءت هذه الدراسةُ في مقدمةٍ وتمهيدٍ، وثلاثةِ مباحثَ، وخاتمة. إذ بيَّن التمهيدُ تعريفَ الغربةِ والحنينِ في معاجم أهل اللغة وعلماء الاصطلاح.

فالمبحثُ الأول: ضمَّ الحديثَ عن بواعثِ الغربةِ والحنين، وقُسّم هذا المبحثُ على الرحلةِ التي كانت إما إلى داخلِ المدن الأندلسية، وإما إلى بلاد المشرق، وضمَّ أيضًا: الاعتقالَ، والإبعادَ، والتهجيرَ عن أرضِ الوطن.

أما المبحثُ الثاني: فقد اهتم بموضوعاتِ شعرِ الغربةِ والحنين، وقسّم الحنينَ إلى: الحنين إلى ديارِ الأحبة، والحنين إلى الأماكن الأليفة، والغربةِ عن الوطن، والغربة عن الديار.

والمبحثُ الثالث: انصرفَ إلى دراسةِ التشكيلِ الفنيِّ لشعرِ الغربةِ والحنينِ في الأندلس، من حيث الأساليبِ البلاغية، وسهولةِ الألفاظ، من توريةٍ، وجناسٍ، وطباق.

وفي الختام، فإنّي أرجو أن أكونَ – في دراستي هذه – قد أعطيتُ البحثَ حقَّه، فإن أصبتُ فمن الله التوفيق، وإن قصَّرتُ فمن نفسي.

التمهيد

أولًا: تعريف الغربة

إذا تتبعنا معنى كلمة «غَرَبَ» في اللغة، وما اشتُق من الجذر «غرب» مثل «تغرّب» و«اغترب»، نجد أن العربَ استخدموها في لغتِهم وشعرِهم؛ فقد ورد معنى الغربة في المعاجم العربية، والتي تحمل – من خلال دلالتها – الارتباطَ بالمكان والانتقالَ منه.

١- الغربة لغةً:

الغُربة: غَرَبَ عنه يَغرُبُ غُروبًا واغترب، ومعنى «غَرَبَ»: الذهابُ والتنحي عن الناس، وأغرَبَه: نحَّاه، والغَرْب: البُعد، ويقال: غَرَّبتُه وأغرَبتُه إذا نحيتَه وأبعدتَه، والتغريب: النفيُ عن البلد، أو البُعد[١].

وجاء أيضًا: الغُربة: التغرُّب، الذهابُ، والغَربُ: النوى والحدُّ. وأيضًا: التغرُّب والغُربة: النزوح عن الوطن، والتغرُّب عن البلد[٢].

وجاء في الصحاح في اللغة «تاج اللغة» إشارة إلى هذا المعنى، بقوله: التغريب: النفي عن البلاد، وأيضًا: «غَرَبَ» بمعنى «بَعُدَ»، و«أغرَبَ عني» أي: تباعد[٣]. وفي الحديث الشريف عن رسول الله (ﷺ): «بدأ الإسلامُ غريبًا، وسيعودُ غريبًا، فطوبى للغرباء»[٤].

٢- الغربة اصطلاحًا:

هي ظاهرةٌ قديمة، لم ترتبطْ بوقتٍ محدد أو حقبةٍ زمنية معيّنة، إلا أنها تزدادُ في الفترات التي يكثر فيها الاضطرابُ والقلقُ، وعدمُ الاستقرار في الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، ويُشكِّل هذا المصطلحُ أكبرَ مشكلةٍ لدى الإنسان في المكان وتباعدِ الزمان؛ فالمعاناةُ، والشعورُ بالوحدة[٥].

ثانياً: تعريف الحنين

الحنين لغة: هو من الفعل الثلاثي الصحيح حنَّ وطرأ عليه التضعيف لغير زيادة فصار حنّ وتصريفه حن، ويحن، وحنينا جاء في لسان العرب حنن الحنان من أسماء الله -عز وجل-، الحنان الرحيم بعباده والحنين شديد البكاء والطرب[٦]. قال تعالى: ﴿وَحَنَانا مِّن لَّدُنَّا﴾[٧].

وقيل: هو صوت الطرب اكان ذلك عن صوت فرح او حزن والحنين الشوق وتوقان النفس والمعنيان متقاربان من اليه يحن حنيناً[٨].

(١) ابن منظور: لسان العرب، ١/ ٦٣٩.
(٢) الزَّبيدي محمّد مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، ٣/ ٤٦٨.
(٣) الجوهري الفارابي: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ١/ ١٩١.
(٤) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ٣/ ١٩١.
(٥) ينظر: أحمد بن رجب الحنبلي: كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة، ص: ٣٢٨.
(٦) ينظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ١/ ٤٥٢.
(٧) سورة: مريم، الآية: ١٣.
(٨) ينظر: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي: جمهرة اللغة، ١/ ١٠٢.

وقيل: الشوق والبكا، والحنان الرحمة ورقة القلب، والحنان من يحن إلى الشيء وتحنن ترحم[١].

٢- الحنين: اصطلاحا: هو الشوق وتوقان النفس مع الطرب والتنغيم وهو يكشف عن مدى معاناة الإنسان في ديار الغربة بعيدا عن وطنه وأهله[٢].

المبحث الأول

بواعث الغربة والحنين. وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول: الرحلة

الرحلة لغة: رَحَلَ وارتَحَلَ، والتَّرحيل والارتحال، معنى الإشخاص والإزعاج. ويقال: رَحَلَ الرجلُ: سار، رَحَلَ رحولًا، ورَحَلَ رحولًا، وقومٌ رُحَّلٌ: أي يرتحلون كثيرًا ا[٣].

الرحلة في الاصطلاح:

سلوك إنساني حضاري، يأتي ثماره النافعة على الفرد وعلى الجماعة؛ فليس الشخص بعد الرحلة كهو قبلها. وما إن أطلّ العصر الأندلسي، حتى كانت للرحلة فيه مكانة عظيمة، لذا نجد المقري[٤] يُفرد جزءًا من سفره للأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق لطلب العلم، أو لتأدية فريضة الحج، أو لسوء الأوضاع الداخلية، ورحلة الأندلسيين نوعان:

أولا: الرحلة داخل المدن الأندلسية:

أقصد بالرحلة الداخلية تنقّل علماء الأندلس وطلبته داخل المدن الأندلسية طلبًا للعلم، وكانت الرحلة الداخلية مزدهرة في عصر سيادة قرطبة، مما دفع الشاعر ابن الجياب[٥] أن يدعو الله لهم بالستر في الدنيا والآخرة، فيقول:

أَبى اللهُ إِلّا أنْ تكونَ اليَدُ العُليا لِأَندَلُسٍ مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَلا ثُنْيا

(١) ينظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص: ٦٣ .

(٢) عبد القادر بن عمر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ٦/ ٤٤٣.

(٣) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ص٢٩١. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ٣/ ١٨٣.

(٤) ينظر: د. فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص: 22. المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين: شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، ٥/ ٤٥٨

(٥) ابن الجياب :هو أبو الحسن علي بن محمد الغرناطي ٦٧٣ه-٧٤٩ه المعروف بابن الجياب.

وَإِنْ هِيَ عَضَّتْها بِنَوْبٍ نَوائِبٍ فَصَيَّرَتِ الشَّهْدَ المَشُورَ بِها شِرْيا[1]

فَما عَدِمَتْ أَهْلَ البَلاغَةِ وَالحِجى يُقِيمونَ فيها الرَّسْمَ لِلدِّينِ وَالدُّنْيا[2]

لقد مثّل الجياب- من خلال تلك الأبيات - الحبَّ الصادق العفوي الذي يصدر عن كل أندلسي تجاه أهله ووطنه، إضافةً إلى المفاخرة بأهل الأندلس. لقد فاخر الغرناطيون بأوطانهم، وأكثروا القول في الإشادة بها والإعجاب بجمالها، فهذا شاعرها لسان الدين بن الخطيب[3]، الذي فُتِن بجمال طبيعة مدينته غرناطة، يصفها بعبارات وصور لا تُخفي شدة حبه وإعجابه بها وتعلقه بحُسنها، يقول:

بلد يحف به الرياض كانه وجه جميل والرياض عذاره

وكأنما واديه معصم غادة ومن الجسور المحكمات سواره[4]

لقد نالت غرناطة، وسائر الأندلس، مكانة عظيمة في نفوس الشعراء، فكانت دار الأحبة، ومهوى الذكريات، وإن افترقوا عنها، فذاك من طبيعة الأيام؛ إذ لا دوام لوصل، ولا أمان من افتراق.

تراجع الشعور بالغربة زمن ملوك الطوائف، لكنه عاد بقوة في عصر غرناطة، بعد سقوط كثير من المدن الأندلسية وتردّي الأحوال السياسية، فكان لذلك بالغ الأثر في نفسية الشعراء، وقد تجذّرت في نفوسهم نزعة الحنين؛ فالأندلس كانت عندهم أغلى من أن تُنسى، وأقرب من أن يُعرض عنها، فترجموها شعرًا صادقًا عبّر عن ارتباطهم العميق بوطنهم. ومن أوضح مَن جسّد هذا الشعور الشاعر الكبير أبو الحسن بن الجياب، إذ قال مادحًا غرناطة:

(1) شْرِيا: هو الشيء المرّ، ويُقابل «الشهد» الذي هو العسل، المَشور: الْعَسَلُ، ابن منظور: لسان العرب، 14/430. علي بن إسماعيل بن سيده المرسي المحكم والمحيط الأعظم، ١١٧/٨.

(٢) المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٥/ ٤٥٩.

(٣) أبو عبد الله، لسان الدين ابن الخطيب محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، (٧١٣ - ٧٧٦ه)، وزير مؤرخ أديب نبيل، كان أسلافه يعرفون ببني الوزير. ولد ونشأ بغرناطة، واستوزره سلطانها أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (سنة ٧٣٣ هـ). الإعلام للزركلي، ٦/ ٢٣٥.

(٤) ابن الخطيب لسان الدين، ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٢٥.

سَقَى اللهُ مِنْ غِرْنَاطَةٍ مَتْبَوَّأً الأُلَى لَهُمْ حَقٌّ عَلَيَّ كَرِيمُ

ضَمِنْتُ لَهَا حِفْظَ العُهُودِ وَإِنَّمَا ضَمِنْتُ لَهَا أَنْ لَا أَزَالَ أَهِيمُ

رُبُوعُ أَحِبَّائِي، وَمَنْشَأُ صَبْوَتِي وَمَعْهَدُ أُنْسِي، إِنَّ ذَا العَظِيمُ[1]

لقد واجه شعراء الأندلس ظروفًا صعبة، جعلت الشوق إلى الوطن عنوانًا لشعرهم، حتى إن انتقالهم داخل الأندلس كان يورثهم غربة، رغم ما فيها من جمال. فأيُّ دوافع هذه التي أرغمتهم؟ لا شك أن الاضطرابات السياسية كانت في مقدمة الأسباب التي دفعتهم إلى ترك ديارهم.

ثانياً: الرحلة إلى المشرق

ما إن وضعت الحرب أوزارها، حتى ارتحل الأندلسيون صوب المشرق، تسبقهم أشواق المعرفة، وتحفّهم رغبة التعلُّم من منابع النحو والأدب والفقه، التي زخرت بها أرض المشرق.

امتدّت هذه الرحلات حتى أواخر عهد ملوك الطوائف، فكانت جسرًا حضاريًّا متينًا بين ضفّتي العالم الإسلامي.

ثم جاءت الهجرة الكبرى، حين تداعت أركان الأندلس، وانهارت عواصمها تحت ضربات الزمان، في الوقت الذي كانت فيه حضارة المشرق الإسلامي تترنّح تحت سيف المغول والتتار، وقد أضناها التمزق السياسي والانحدار الحضاري. لم تكن هذه الرحلات مجرد تنقّلات علمية أو سياسية، بل كانت ضرورةً فرضتها الأحداث، وهروبًا من وطأة القهر وسقوط الحواضر.

فكان الأندلسي يرحل عن وطنه إمّا مُكرَهًا، أو طلابًا للعلم والمعرفة، وكان دافع الرحلة الأكبر هو عصف السياسة ودمار المدن.

ومن بين هؤلاء الشعراء الذين تركوا ديارهم مضطرين: أبو بكر محمد بن القاسم [2]، ابن وادي الحجارة، الذي غادر أرضه بعد نكبة قرطبة، حين تبدّلت أحوالها وتقلبت ملوكها، فهام في أرض العراق، وتجرّع مرارة الغربة، إلى أن انتهى به المقام في حلب، حيث اتّخذها وطنًا مؤقتًا، وقال فيها أبياتًا تقطر شوقًا

(١) ابن الخطيب لسان الدين، ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٤٧.

(٢) أبو بكر محمد بن قاسم أشكهباط وقيل: (بإشكمياط)، من المسهب أصله من وادي الحجارة ونشأ بقرطبة وساد فيها وجارى حلبة الأعيان والكتاب في تلك الفتنة، د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ٨/ ٤٥٤.

وتفضح وجع الحنين: [الرجز]

أَيْنَ أَقْصَى الغَرْبِ مِنْ أَرْضِ حَلَبْ أَمَلٌ فِي الغُرْبَةِ مَوْصُولُ التَّعَبْ
حَنَّ مِنْ شَوْقٍ إِلَى أَوْطَانِهِ مَنْ جَفَاهُ الصَّبْرُ لَمَّا اغْتَرَبْ
جَالَ فِي الأَرْضِ لُجَاجاً حَائِراً بَيْنَ شَوْقٍ وَعَنَاءٍ وَنَصَبْ
يَا أَحبَّائي اسْمَعُوا بَعْضَ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ الطَّرِيدُ المُغْتَرِبْ[1]

غير أن الأندلس – في خضمّ هذا الظلام – أشرقت، فأنجبت حضارة ناهضة قوية، تدفّقت فيها ينابيع الفكر والأدب، وشاد أمراؤها الأمويون – الذين نُحّوا عن الخلافة في المشرق – كيانًا مستقلاً، نافسوا به بغداد، وسعوا لإعلاء شأن دولتهم بكل حزم واعتداد، فالمشرق بالنسبة للشاعر بمثابة جهنم، بينما الأندلس – ووطنه تحديدًا – جنة عدن. ومن هؤلاء المرتحلين إلى المشرق القاضي ابن الأزرق [2]، ومن شعره في الحنين إلى غرناطة، يقول: [الطويل]

مُشَوَّقٌ بِخِيَمَاتِ الأَحِبَّةِ مُولَعٌ تُذَكِّرُهُ نَجْدٌ وَتُغْرِيهِ لَعْلَعُ
مَوَاضِعُكُمْ يَا لائِمِينَ عَلَى الهَوَى فَلَمْ يَبْقَ لِلسُّلْوَانِ فِي القَلْبِ مَوْضِعُ
وَمَنْ لِيَ بِقَلْبٍ تَلْتَظِي فِيهِ زَفْرَةٌ وَمَنْ لِيَ بِجَفْنٍ تَنْهَمِي مِنْهُ أَدْمُعُ[3]

المطلب الثاني: الاعتقال والإبعاد.

كانت السياسة سببًا رئيسًا من أسباب السجن، بل هي الدافع الأقوى الذي من خلاله زُجّ بالكثير من الشعراء الأندلسيين في السجون والمعتقلات. فهذه القضية من أخطر القضايا التي تواجه الإنسان في حياته، والتي تُخلف الحسد والدسائس والمؤامرات، وتنتهي بصاحبها إما إلى القتل والاغتيال، أو إلى

(١) أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي: المغرب في حلى المغرب، ٢/ ٣١.
(٢) القاضي أبو عبد الله ابن الأزرق محمد بن على بن محمد بن القاسم الأصبحي (٨٩٥هـ)، أصله من وادى آش، وتولى قضاء الجماعة فى غرناطة. وكان بارعاً فى النثر والنظم والتاريخ. محمد عبد الله المصري: دولة الإسلام في الأندلس، ٥/ ٤٩٠.
(٣) المقري شهاب الدين بن أحمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ٣/ ١١٩.

السجن.

تكاد السنوات الأولى من دخول العرب إلى الأندلس تخلو من شعر السجن والأسر، لا سيما في المرحلة الأولى من الإمارة الأموية في الأندلس، حيث استطاع الأمير عبد الرحمن الداخل أن يقضي على الكثير من الفتن والاضطرابات.

ولعل خير دليل على ذلك مأساة الشاعر جعفر المصحفي[1]، الذي أُودع السجن على يد المنصور أبي عامر، حيث نظم العديد من القصائد في سجنه، منها قوله: [الكامل]

أُجَازِي الزَّمَانَ عَلَى حَالِهِ ... مُجَازَاةَ نَفْسِي لِأَنْفَاسِهَا

إِذَا نَفْسٌ صَاعِدٌ شَفَّهَا ... تَوَارَتْ بِهِ دُونَ جُلاَّسِهَا

وَإِنْ عَكَفَتْ نَكْبَةٌ لِلزَّمَانِ ... عَطَفْتُ بِصَدْرِي عَلَى رَاسِهَا[2]

وظهرت الصراعات بين ملوك الطوائف، فعلى الرغم من أن عصرهم شهد ازدهارًا من الناحية العلمية والأدبية، إلا أنه العصر نفسه الذي سُجن فيه ملوك الطوائف.

فقد تعرّض الكثير منهم للسجن والإبعاد من الحكّام، خلال الفترة الممتدة من عصر الإمارة حتى سقوط غرناطة وخروج العرب منها.

فمن الأندلسيين الذين زُجّ بهم في السجن لأسباب سياسية الشاعر سَروان بن عبد الرحمن الناصر[3]: [البسيط]

غُصْنٌ يَهْتَزُّ فِي دَعْصٍ نَقَا ... يَجْتَنِي مِنْهُ فُؤَادِي حَرَقَا

أَطْلَعَ الْحُسْنُ لَنَا مِنْ وَجْهِهِ ... قَمَراً لَيْسَ يُرَى مُمْحَقَا

(١) جعفر بن عثمان بن نصر، أبو الحسن، الحاجب المعروف بالمصحفي (٣٧٢ه)، وزير، أديب، أندلسي، من كبار الكتاب، الإعلام للزركلي، ٢/ ١٢٥.

(٢) ولي فاضل فتحي محمد / الفتن والنكبات الخاصة، ص: ٣٥.

(٣) الطليق: مروان بن عبد الرحمن من بني أمية، كان أديباً شاعراً وأكثر شعره في السجن، أحمد بن يحيى، الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ص: ٤٦١.

وَرَنَا عَنْ طَرْفِ رِيمٍ أَحْوَرٍ لَحْظُهُ سَهْمٌ لِقَلْبِي فَوْقَا

ومن الشعراء الذين ذاقوا مرارة انقلاب الحكام عليهم لأسباب غير سياسية الشاعر يحيى بن الحكم البكري[1]، حُكم عليه بالسجن، فنظم الغزال شعرًا يسترحم به الأمير، حيث يقول:

إِنْ تَرُدِ الْمَالَ فَإِنِّي امْرُؤٌ لَمْ أَجْمَعِ الْمَالَ وَلَمْ أَكْسِبِ
إِذَا أَخَذْتَ الْحَقَّ مِنِّي فَلاَ تَلْتَمِسِ الرِّبْحَ، وَلَا تَرْغَبِ
قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْنَا مَعاً إِنْ كَانَ رَأْسُ الْمَالِ لَمْ يَذْهَبِ

ومن شعراء الأندلس الذين ذاقوا مرارة السجن والأسر والإبعاد عن الوطن الشاعر عبد الكريم البسطي [2]، يقول في الحنين والشوق المتولّع إلى وطنه وأحبته وأهله: [الكامل التام]

إِنِّي فَضَضْتُ عَنِ الدُّمُوعِ خِتَاماً فَغَدَتْ تَسِيلُ بِوَجْنَتَيَّ غَمَاماً
شَوْقاً إِلَى عَيْشٍ مَضَى بِأَحِبَّةٍ كَانُوا، وَعَيْشُهُمُ عَلَيَّ كِرَاماً
يَا سَاكِنِينَ بِبَسْطَةٍ دُونِي، وَلِي قَلْبٌ بِهِمْ مَا يَسْتَفِيقُ غَرَاماً[3]

المطلب الثالث: التهجير عن أرض الوطن

شهدت بلاد الأندلس سلسلة من الحروب الضارية، وتتابعت عليها النكبات والمحن. فبعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس، اندلعت فتنة البربر، التي كانت نتائجها سقوط غرناطة – حاضرة العلم والثقافة – في يد الإسبان.

(١) أبو بكر يحيى بن حكم البكري الجياني الحكيم المعروف بالغزال شاعر الأندلسي، (ت٢٥٠هـ)، ابن الفرضي عبد الله بن محمد الأزدي: تاريخ علماء الأندلس، ١٣/١. إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ٥١٦/٢.

(٢) عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي البَسطي (897 هـ)، من شعراء الأندلس في القرن الأخير من حياة العرب المسلمين في تلك الديار. معجم الشعراء العرب، ص: ١٦١٣.

(٣) البسطي عبد الكريم ديوان عبد الكريم بن محمد القيسي البسطي، ص: ١٠٢.

إن الأحداث السياسية، الممتدة من سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وحتى سقوط غرناطة، كان لها صدى كبير وأثر بالغ على أبناء الأندلس عامة، والشعراء خاصة؛ فلم يعد بإمكان هؤلاء الشعراء البقاء في مدنهم الأندلسية بعد سقوطها بيد العدو الإسباني(١).

فقد عانى ابن الأبّار من مرارة الشوق وألم الفراق، وعلى الرغم من ذلك، يرى أن بلاده هي الجنة بالنسبة إليه، يتشوّق إليها ويحنّ إلى ربوعها، ولا يمكن أن تتغير مشاعره تجاهها مهما أصابه نتيجة لبُعده عنها، بل إنه يودّ لو يأوي إليها لتهدأ نفسه، ولكن هيهات له ذلك.

ونجده قد هاجر عن وطنه بلنسية ليحلّ في بلاد الغربة تونس، بعد أن سقطت مدينته بيد الأعداء النصارى. إنه الشاعر ابن الأبّار (٢) الذي نظم شعر يتشوق به ويحن يقول: [الوافر]

يَا أَهْلَ وُدِّي لَمْ أَرُمْ تَدَانِيَا ... مِنْكُمْ وَدَارُكُمُ تُبِينُ وَتَنْزَحُ

إِنْ كَانَ جِسْمِي شَطَّ عَنْ مَثْوَاكُمُ ... فَالْقَلْبُ ثَاوٍ بَيْنَكُمْ لَا يَبْرَحُ

هَذِي الْجَوَانِحُ بِالْجَوَى مَمْلُوءَةٌ ... مِمَّا أَمِيلُ لَكُمْ وَمِمَّا أَجْنَحُ(٣)

نلاحظ من خلال الأبيات حنين الشاعر إلى وطنه، الذي أخذ يُعدّد الأماكن المختلفة فيه، مظهرًا جمالها وروعتها. وإن هجرة هؤلاء الشعراء عن أوطانهم لم تكن بسبب كرههم لها، وغالبًا ما كان الدافع لهذه الهجرة قسريًّا ورغمًا عنهم.

وبتتبعنا للشعراء الذين تعرّضوا للسجن والاعتقال، سواء من حكّام بلادهم أو من العدو الإسباني، يتبيّن أن الاعتقال والإبعاد كانا من أبرز الأسباب التي أدّت إلى شيوع شعر الحنين في العصر الأندلسي، خاصة في فترة حكم غرناطة.

(١) يوسف الطويل، المدخل إلى الأدب الأندلسي، ص: ١٤١.

(٢) الإمام الحافظ الحجة الكاتب الأبرع محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي الأندلسي البلنسي ثم التونسي، (ولد سنة ٥٩٥هـ) وعني بالحديث، محمد عَبْد الحَيّ الإدريسي: فهرس الفهارس والأثبات، ١/١٤٢.

(٣) ابن الآبار: التكملة لكتاب الصلة»، ص: ٢٢١.

المبحث الثاني
معاني شعر الغربة والحنين وفيه أربعة مطالب

المطلب الأول: الحنين إلى ديار الاحبة.

لشعراء الأندلس شعرٌ كثير في هذا الغرض، وقد زادوا على كثير من أقرانهم، حيث الوفرة، أو قوة العاطفة، أو رنّة الأسى، أو لهفة اللقاء، نظرًا لظروف الأندلس التي كانت في حال استنفارٍ متواصل. ثم إن أغلب الذين تركوا بلادهم وديارهم، كانت رحلتهم إما إلى المشرق – وهي الأبعد عن بلدهم – أو إلى مناطق أخرى هي في الأندلس، لكنها غير محل سكناهم الأصلي.

وكثيرًا ما كان المسافرون لا يؤوبون إلى ديارهم، إما لأنّ المقام طاب لهم في ربوع البلاد الإسلامية المترامية، أو لأنّ الرحلة كانت ابتداءً طلبًا للاغتراب والسكنى، لا سيما في المشرق. وهناك، حيث الغربة والبعد، كانت قلوبهم لا تنفكّ متعلّقة بالأندلس، فيطلقون قصائدهم ومقطوعاتهم، يذكرون فيها ديارهم وأهليهم، ويسترجعون بها أيام السكنى والعزّ، فيفيضون بالشوق، وتغمر أشعارهم رقة الإحساس وحرارة الحنين.

ويتجلى هذا المعنى بأقوى صوره في شعر المعتمد بن عباد[1]، ذلك الملك الذي عاش في الأندلس سيّدًا مهابًا، ثم انتهى به المطاف أسيرًا ذليلاً، يذرف دموع الحنين على قصوره التي كانت يومًا عامرة بالملك والحرية. فنراه يستدعيها بأسمائها: الزاهي، والوجد، والمبارك، وغيرها، في مراثٍ تقطر أسًى، وتعبّر عن لوعة لا تُخفى، كما يقول في مقطوعة باكية[2]:

بَكَى الْمُبَارَكُ فِي إِثْرِ ابْنِ عَبَّادِ ... بَكَى عَلَى أَثَرِ غِزْلَانٍ وَأُسْدَادِ

بَكَتْ ثُرَيَّاهُ لَا غُمَّتْ كَوَاكِبُهَا ... بِمِثْلِ نَوْءِ الثُّرَيَّا الرَّائِحِ الْغَادِي

بَكَى الْوَحِيدُ، بَكَى الزَّاهِي وَقُبَّتُهُ ... وَالنَّهْرُ وَالتَّاجُ، كُلٌّ ذُلُّهُ بَادِ

(١) أبو القاسم محمد بن عبّاد اللخمي(٤٣١– ٤٨٨ه)، آخر ملوك بني عبّاد في إشبيلية، وأحد أشهر ملوك الطوائف، وكان شاعراً فحلاً، الذّهبي، سير أعلام النبلاء، ١٧٩/٥.

(٢) الفتح بن خاقان، قلائد العقيان في محاسن الرؤساء والقضاة: ص:٢٤.

مَاءُ السَّمَاءِ عَلَى أَبْنَائِهِ دُرَرٌ يَا لُجَّةَ الْبَحْرِ دُومِي ذَاتَ أَزْبَادِ[1]

وكان البلنسي[2] قد خرج من بلدته صغيرًا، مما حفّزه على ذكرها حنينًا إليها، فقال: [الوافر]

بِلادِيَ الَّتي رُيِّشْتُ قُوَيْدِمَتي بها فَرِيخاً وأَوْتَتْني قَرارَتَها وَكْرا
مَبادِئُ لِينِ العَيْشِ في رِيقِ الصِّبا أَبى اللهُ أَنْ أَنْسَى لَها أَبَداً ذِكْرا
لَبِسْنا بِها ثَوْبَ الشَّبابِ لِباسَها وَلَكِنْ عُرِّينا مِنْ حَلاهُ وَلَمْ تَعْرا
أَمَنْزِلَنا عَصْرَ الشَّبيبَةِ ما الَّذي طَوَى دونَنا تِلْكَ الشَّبيبَةَ وَالعَصْرا[3]

وخرج أبو البقاء الرندي[4] من الأندلس إلى المغرب لغرض لم يذكره، لكنه سجّل في قصيدة نظمها بمدينة مراكش، وقد أخرج قصيدته مخرجًا عاطفيًا عميقًا، ودخل إلى موضوع الحنين، حيث قال:

بَلِّغْ لِأَنْدَلُسَ السَّلامَ وَصِفْ لَهَا مَا فِيَّ مِنْ شَوْقٍ وَبُعْدِ مَزَارِ
وَإِذَا مَرَرْتَ بِرَنْدَةَ ذَاتِ الْمُنَى وَالتَّاجِ وَالدِّيمُوسِ وَاللُّؤْزَارِ
سَلِّمْ عَلَى تِلْكَ الدِّيَارِ وَأَهْلِهَا فَالْقَوْمُ قَوْمِي وَالدِّيَارُ دِيَارِي[5]

المطلب الثاني: الحنين إلى الأماكن الأليفة.

إنّ الإنسان – ومنذ القدم – يعلن عن حاجته إلى إقرار وجوده والبرهنة على كينونته من خلال الإقامة

(١) ديوان المعتمد بن عباد ص: ٩.
(٢) محمد بن غالب الرفاء الرصافي أبو عبد الله البلنسي، (٥٧٢هـ)، شاعر وقته في الأندلس، وأصله من رصافة بلنسية، كان يرفأ الثياب ترفعاً عن التكسب بشعره، وعرفه صاحب (المعجب) بالوزير الكاتب، أقام مدة بغرناطة، وسكن مالقة وتوفي بها، له ديوان شعر، ص: ٦٧٠.
(٣) ديوان الرصافي ص: ٦٧.
(٤) أبو البقاء الرندي (٦٠١-٦٨٤هـ) شاعر وأديب أندلسي، وُلد في مدينة رندة بالأندلس. اشتهر بقصيدته النونية في رثاء الأندلس، وكان فقيهاً وأديباً بارعاً، يُعد من آخر شعراء الأندلس البارزين. .
(٥) الوافي في نظم القوافي، ص: ٣٩.

في مكان ثابت، سعيًا وراء رغبة متأصلة في الاستقرار وطلب الأمن للذات. وانطلاقًا من مكان الألفة – وهو المكان الذي يتعامل معه الشاعر بشكل يومي – يُطلق عليه صفة «الألفة»، وهي صفة تتصف بها كل الأمكنة التي تستهوي الأنفس، وتجذبها، وتحسّس بهاءتها دون غيرها، وتميل لها تلك النفس.

نجد الشاعر الكبير ابن خفاجة[1] قد أولى لهذا الموضوع أهمية رائقة، وهو الإنسان الألوف، الذي عبّر عن حنينه إلى أماكن الألفة، مؤكّدًا انتماءه إليها، حيث يقول: [الطويل]

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لِدَهْرِي عَطْفَةٌ فَتَجْمَعَ أَوْطَارِي عَلَيَّ وَأَوْطَانِي
مَيَادِينُ أَوْطَارِي وَلَذَّةُ لَذَّتِي وَمَنْشَأُ تَهْيَامِي وَمَلْعَبُ غِزْلَانِي[2]

فمعايشة الشاعر للمكان الأول، ثم رحيله عنه، لم تؤدِّ إلى انقطاع الذكرى بينه وبين ذلك المكان، ولم تؤدِّ به أيضًا إلى نسيانه؛ لأنه ببساطة مرتبط بكيانه وبأعماقه، ويمنحه الأمن والحماية. فإذا كانت مدينة شُقر بعيدة عن الشاعر مكانيًا، فهي تظل قريبة منه نفسيًا، فيغدو ارتباط الشاعر بالمكان الأول – شُقر – تواصلاً مع الذاكرة التي تعود به دومًا إلى هناك. إذ قال:

بَيْنَ شَقَرٍ وَمُلْتَقَى نَهْرَيْهَا حَيْثُ أَلْقَتْ بِنَا الأَمَانِي عَصَاهَا
وَيُغَنِّي المَكَّاءُ فِي شَاطِئَيْهَا يَسْتَخِفُّ النُّهَى فَحَلَّتْ حِبَاهَا
عِيشَةٌ أَقْبَلَتْ شَهِيٌّ جَنَاهَا وَارِفٌ ظِلُّهَا لَذِيذٌ كَرَاهَا[3]

لا شك في أن مكان ألفه الشاعر يستمد جماليته من عدة عوامل رئيسة، أهمها عنصر الطبيعة، وبلاد الأندلس – لما حباها الله من جمال طبيعي – فهي ذلك الصنع الجميل الذي له أثر جميل في نفوس أبنائه، مما جعل الشعراء يذكرونها في حلّهم وترحالهم، حيث أصبحت الطبيعة الأندلسية أداةً ومنفذًا للتعبير عن حنينهم إلى بلادهم ومدنهم ومحل سكناهم.

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي (٥٣٣هـ)، وُلد في جزيرة شقر من أعمال بلنسية بشرق الأندلس. يُعد من أبرز شعراء الأندلس، إبراهيم بن يوسف الحمزي: مطالع الأنوار على صحاح الآثار، ١/ ٣٥.
(٢) ابن خفاجة الديوان ص ٣٤٥.
(٣) ابن خفاجة الديوان، ص: ٣٦٤.

فنجد ابن سعيد[١] يعبّر عن حنينه إلى إشبيلية، ويذكر أيامه التي قضاها في ربوعها، واصفًا جلوسه وتجوله على ضفاف نهرها الكبير، وفي إحدى قصائده التي قالها بمصر، نجده يشيد بنهر إشبيلية، بقوله:

أَيْنَ حِمْصُ أَيْنَ أَيَّامِي بِهَا وَحَمَامُ الأَيْكِ يَشْدُو حَوْلَنَا
كَمْ تَقَضَّى لِي بِهَا مِنْ لَذَّةٍ حَيْثُ لِلنَّهْرِ خَرِيرٌ مُطْرِبُ[٢]

وفي أبيات أخرى، يُبيّن عمق إحساسه بالحنين إلى طبيعة بلاده وأنهارها، مظهرًا محاسنها، قائلاً:[٣] [الكامل]

أَيْنَ حِمْصُ أَيْنَ أَيَّامِي بِهَا وَحَمَامُ الأَيْكِ يَشْدُو حَوْلَنَا
كَمْ تَقَضَّى لِي بِهَا مِنْ لَذَّةٍ حَيْثُ لِلنَّهْرِ خَرِيرٌ مُطْرِبُ[٤]

ومن ذلك الحنين إلى الجبال والأودية، فقد ورد في شعر أبي المطرف بن عميرة جنينة[٥] إلى أحد جبال الأندلس، واصفًا ما في قلبه من لواعج وشوق، وقد رمز إلى ذلك الجبل بالريّان.

لكن هناك مكانًا يألفه الشاعر وغيره، ويستهوي الأنفس، وكل الناس تزوره، وتميّزت به الأندلس، وهو المنتزهات والحدائق، تلك أماكن أُنسهم ولهوهم، حيث انعكس حنين شعراء الأندلس بفقدانهم لها. فقد ذكروا ما فيها من منتزهات وحدائق، وجعلوها أداةً للتذكير والحنين، ولعل من هؤلاء الشعراء عبد الله بن سماك، يقول: [الكامل]

الرَّوْضُ مُخْضَرُّ الرُّبَى مُتَجَمِّلٌ لِلنَّاظِرِينَ بِأَجْمَلِ الأَلْوَانِ

(١) علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الأندلسي، (٦٨٥ه)، الأديب النحوي المؤرخ، وُلد في مدينة غرناطة، السيوطي: بغية الوعاة، ٢/٢٠٩.
(٢) أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت ٦٨٥هـ)، المغرب في حلى المغرب، ٢/١٧٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ١١٢.
(٤) المصدر نفسه، ٢/١٧٢.
(٥) أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عَميرة المخزومي: من أهل جزيرة شُقر وسكن بلنسية، محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي: تحفة القادم، ص: ٢٠٩.

وَالطَّيْرُ يَسْجَعُ فِي الْغُصُونِ كَأَنَّهُ نَقْرُ الْقِيَانِ جِئْتَ عَلَى الْعِيدَانِ[1]

والشاعر هنا – في وصفه الرياض – لا يعطي صورة جامدة أو مباشرة، بل يزودنا بصورة عامة للجو العام في المجتمع الأندلسي. وفي حين نجد للشاعر ابن خفاجة أبياتًا يجعل فيها من جمال الأندلس ذروة لا تفوقها، يذكرها في حلّه وترحاله، قائلاً: [البسيط]

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ لِلَّهِ دَرُّكُمْ مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارُ
مَا جَنَّةُ الْخُلْدِ إِلَّا فِي دِيَارِكُمْ وَلَوْ تُخَيَّرْتُ هَذَا كُنْتُ أَخْتَارُ
لَا تَخْتَشُوا بَعْدَ ذَا أَنْ تَدْخُلُوا سَقَراً فَلَيْسَ تَدْخُلُ بَعْدَ الْجَنَّةِ النَّارُ[2]

ومما قاله الملك يوسف الثالث في الحنين الدائم إلى الأطلال، نجده لم يغب ذكرها في قصائده الحنينة، فنراه يساجلها بدموع وابلة، وأكباد حَرْقى، إذ يقول: [الكامل]

مَرَّتْ بِنَجْدٍ وَمَا نَجْدٌ بِمَرْتَعِ لَوْلَا الْمَلِكُ الَّذِي لَمْ يُبْقِ تَصْرِيحاً
سَاجَلْتُهَا بِدُمُوعٍ طَلٌّ وَابِلُهَا زَانَ الْحَدَائِقَ تَقْلِيداً وَتَوْشِيحاً
سُقْيَا لِغِرْنَاطَةٍ وَاللهِ مَا بَرِحَتْ تُلْقِي مِنَ الْبُعْدِ فِي قَلْبِي التَّبَارِيحَا[3]

إنه موضع لا يُقام فيه فصل الربيع، وما تجد بمرتع، فكانت المفاخرة بتلك الدموع التي انهمرت بغزارة، فأزّينت الحدائق، واكتست حياة وحركة، ويدعو بالسقيا لهذه المدينة الغالية على قلبه، التي ما فتئت تشعل لهيب الحب في فؤاده.

المطلب الثالث: الغربة عن الوطن.

إنّ غربة شعراء الأندلس كما تقول فاطمة طحطح[4]، «غربة أنطولوجية ووجودية؛ غربة المكان، غربة

(١) محمد حسن فجة محطات أندلسية دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي، ص: ١٢٥.
(٢) جميلة الخوري، الطبيعة في شعر الأندلس رسالة ماستر، ص: ١٨.
(٣) يوسف الثالث: ديوان ملك غرناطة، ص: ٢٩.
(٤) فاطمة طحطح: باحثة وكاتبة مغربية، «الغربة والحنين في الشعر الأندلسي»، والذي هو في الأصل أطروحة دكتوراه

النفي في وطن غير الوطن، ووسط أهل غير الأهل، غربة الروح عن الجذور»[١]

وتشير الباحثة إلى أن الغربة لم تكن مجرد انتقال جغرافي، بل كانت تجربة وجودية تمس كيان الشاعر بأكمله[٢].

ويعود الاختلاف بين غربة شعراء المشارقة وغربة شعراء الأندلسيين إلى عدة عناصر أساسية، منها ما يتعلق باختلاف البيئة، ومنها ما يتعلق بشخصية المجتمع الأندلسي ونفسيته، التي تنازع دومًا نحو الحنين إلى المكان الأول، والارتباط الشديد داخل الوطن الواحد، وكذلك عوامل سياسية متصلة بالظروف التاريخية التي مرت بها الأندلس.

فهذا أبو الحسن الرعيني[٣]، من شعراء القرن السادس الهجري، كان مشهورًا بحسن الوصف والبلاغة، ويجمع في شعره بين الطبيعة والغزل. أقام في مرسية، وهي إحدى المدن الأندلسية التي تتميز بروعة جمالها وصفائها، إلا أنه أحس بالغربة، فهو غريب عن بلده وأهله، فشبّه حاله بحال شمّامة زهرٍ قُطفت من غصنها وأُبعدت عن أمها، يقول: [الطويل]

تَأَلَّفَ مِنْ أَغْصَانِ أَسٍّ وَزَهْرَةٍ ... فَمِنْ صِفَتَيْهِ زَاهِرٌ وَرَطِيبُ

تعانَقَتِ الأغصانُ فيه كما التَقَى ... حبيبٌ على طُول النَّوى وحبيبُ

وإنّ الذي أدناهُ بعدَ فِراقِهِ ... إليَّ لَسِرٌّ في الوجودِ عجيبُ

مناسبةٌ للبَيْن كان انتسابُها ... وكلُّ غريبٍ للغريبِ نَسيبُ[٤]

لقد عبّرت أبيات الرعيني عن هموم البعد والنوى، والحنين والشوق إلى الوطن، على الرغم من أنه داخل مرسية، فقد ألهبت مشاعره، فبدأت نبرته حزينة شاكية، توحي بحبه لوطنه.

قُدمت إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط سنة ١٩٩٣.

(١) فاطمة طحطح: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص: ٣٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص: ٣٥.

(٣) أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعينيّ، ويقال له ابن الفخار، (٥٦٦٦) من بني الحاج من شعراء الأندلس، الإعلام للزركلي، ٤/ ٣٣٣.

(٤) ابن عبد الملك المراكشي التكملة لكتاب الموصول والصلة، ٤/ ١٠٤.

أما عند ابن فركون، أبو الحسن بن أحمد بن سليمان[1]، فالأمر يختلف؛ إذ رحل عن بلاده، تاركًا وراءه بلده الأم وأحبابه، فنظَم قصيدة يقول فيها: [الكامل]

هَلْ بَعْدَ طُولِ تَغَرُّبِي وَفِرَاقِي ... أَرْجُو اللِّقَاءَ وَلَاتَ حِينَ تَلَاقِ
لَمَّا رَحَلْتُ عَنِ الْمَنَازِلِ لَمْ يَزَلْ ... سُكْنَى الْغَرَامِ بِقَلْبِي الْخَفَّاقِ
يَا حَادِيَ الْأَظْعَانِ مَالَكَ وَالسُّرَى ... اللهِ فِي الرَّمَقِ الَّذِي هُوَ بَاقِ

ويشكو الشاعر في هذه الأبيات ألم البُعد والفراق، بسبب ترحاله عن بلاده. ومن الراحلين عن أوطانهم لسان الدين بن الخطيب، وإن كانت غربته لم تتجاوز الأندلس، فقد قضى غيبته في جبل الفتح قريبًا من غرناطة، حيث يتشوق إليها في غربته، قائلاً في مطلع قصيدته: [الطويل]

سَلُوا عَنْ فُؤَادِي بَعْدَكُمْ كَيْفَ حَالُه ... وَقَدْ قُوِّضَتْ عِنْدَ الصَّبَاحِ رِحَالُهُ
وَلَا تَحْسَبُوا أَنِّي سَلَوْتُ عَلَى النَّوَى ... فَسُلْوَانُ قَلْبِي فِي هَوَاكُمْ مُحَالُهُ
وما حَالُ مَنْ شَطَّتْ بِغَرْبٍ دِيَارَهُ ... وَفِي الشَّرْقِ أَهْلُوهُ وَثَمَّ حِلَالُهُ[2]

ومن الشعراء الذين أحسوا بالغربة، وشدة الشوق إلى الوطن، أبو الحسن الحميري الأندلسي[3] حيث يقول: [الكامل]

فَارَقْتُ أَوْطَانِي وَلَمْ أَبْلُغِ الْمُنَى ... وَدُونَ مُرَادِي أَبْحُرٌ وَهِضَابُ
مَضَى زَمَنِي وَالشَّيْبُ حَلَّ بِمَفْرِقِي ... وَأَبْعَدُ شَيْءٍ أَنْ يُرَدَّ شَبَابُ[4]

(١) ابن فركون أبو الحسن بن أحمد ديوان ابن فركون، ص: ٢٥٩.
(٢) ابن الخطيب لسان الدين، ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٧٢.
(٣) أبو الحسن علي بن أحمد بن حمدون الحميري الأندلسي، عاش في الأندلس خلال القرن السادس الهجري، تميز شعره بالغربة والحنين، السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ٢/ ١٤٢.
(٤) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص: ٢٧٦ .

وهذا ابن الأبّار يفارق بلنسية بعد احتلال النصارى لها، ليستقر في تونس، لكنه حين يغادر وطنه، يخلف قلبه، ومصطحبًا شوقه وألمه، على الرغم من ما كان ينتظره من حياة كريمة، إلا أنه لا يشهد بالسعادة ما دام بعيدًا عن وطنه، قائلاً: [الكامل]

يَا أَهْلَ وُدِّي لَمْ أَرُمْ تَدَانِيَاً مِنْكُمْ وَدَارُكُمْ تَبِينُ وَتَنْزَحُ

إِنْ كَانَ جِسْمِي شَطَّ عَنْ مَثْوَاكُمْ فَالْقَلْبُ ثَاوٍ بَيْنَكُمْ لَا يَبْرَحُ (١)

ويُظهر ابن الأبّار حبه لوطنه، وإن كان لا بد من الرحيل، فقد رحل بجسده، وخلف قلبه في وطنه لا يفارقه.

أما ابن الزمرك، فقد اضطرته الظروف السياسية إلى الخروج إلى فاس، بعيدًا عن غرناطة، فأحس بالغربة عنها، فبعث بأبياتٍ إلى الغني بالله، قال فيها: [الوسيط]

سَلُوا عَنْ فُؤَادِي بَعْدَكُمْ كَيْفَ حَالُه وَقَدْ قُوِّضَتْ عِنْدَ الصَّبَاحِ رِحَالُهُ

وَلَا تَحْسَبُوا أَنِّي سَلَوْتُ عَلَى النَّوَى فَسُلْوَانُ قَلْبِي فِي هَوَاكُمْ مُحَالُهُ

وما حَالُ مَنْ شَطَتْ بِغرَبٍ دِيَارَهُ وَفِي الشَّرْقِ أَهْلُوهُ وَثَمَّ حِلاَلُهُ(٢)

ثم نجد ابن الخطيب يصف التغرب والنوى والبعد عن الأوطان بأنه موت أو قتل، فهو ساوى بين ألم الغربة والنوى والجلاء عن الأوطان، وبين القتل المتعمد. قائلاً:

إنا قتلنا بالنوى سيان من يجلى عَنِ الأَوطان أو من يقتل(٣)

أما ابن سعيد، الذي اغترب عن موطنه، وأحس بالضياع بعد اضطراره إلى الرحيل نحو مصر، فقد قال فيه: [الكامل]

(١) يوسف الطويل: مدخل إلى الأدب الأندلسي، ص: ١٤١.
(٢) ابن الخطيب لسان الدين: ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٧٢.
(٣) ابن الخطيب لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ١/ ٩٨.

وَيْحَ الْغَرِيبِ تَوَحَّشَتْ أَلْحَاظُهُ فِي عَالَمٍ لَيْسُوا لَهُ بِشَبِيهِ
إِنْ عَادَ لِي وَطَنِي اعْتَرَفْتُ بِحَقِّهِ إِنَّ التَّغَرُّبَ ضَاعَ عُمْرِي فِيهِ[1]

ويقول الدكتور ابن شريفة في مقدمة ديوان ابن فركون: إن في ديوان يوسف الثالث قصائد متعددة، قالها في السجن أو أيام الوحشة، كما يسميها، ومنها قوله: [الرجز]

أَبْعَدُونَا تَغَلُّباً أَبْعَدُونَا طَرَدُونَا عَنْ مَلْكِهِمْ طَرَدُونَا
سَلَبُونَا بَعْضَ الَّذِي قَدْ مَنَحْنَا مِنْ عَطَايَا جَزِيلَةٍ سَلَبُونَا
خَلَّفُونَا بَعْدَ الْيَمِينِ جِهَاراً وَيْحَهُمْ مَا لَهُمْ خَلَّفُونَا[2]

كل هذا الألم والمعاناة التي عاناها الشعراء بسبب الرحلات لم تكن برضاهم، بل كانت رغمًا عنهم، غير مختارين لهذا الخيار.

المطلب الرابع: الغربة عن الديار.

حين يغترب جسد الإنسان عن داره وأهله ووطنه، فإن تفكيره يبقى بتلك الدار معلقًا، رغم البُعد عنها، لأن الإنسان يحنّ إلى تربته، مهما كانت وجهته التي ذهب إليها. وتعبيرهم عن هذا الفراق متفاوت، لكن أفضل من يجسّد هذا الفراق هم الشعراء، ففي شعرهم تبرز صورة ألم الفراق الذي يعيشونه بأبيات تؤنس القارئ. فهذا ابن الأبّار، اغترب عن داره، فقال: [الكامل]

لِلَامَ الْمُحِبُّونَ الْفِرَاقَ وَلَمْتُه لَكِنَّهُمْ سَئِمُوا وَلَمَّا أَسَامُوا
فَعَلَيَّ فَلْتَبْكِ الْبَوَاكِي أَنَّنِي أُخْرِجْتُ مِنْ وَطَنِي وَلَسْتُ بِمُجْرِم

(١) ابن سعيد المغربي: المقتطف من أزهار الطرف، ١/ ١١.
(٢) ديوان ابن فركون، ص: ٢٠.

لَا أَسْتَرِيحُ بِغَيْرِ لَيْلٍ أَلِيلٍ أَشْكُو تَطَاوُلَهُ وَيَوْمٍ أَيُّومِ[1]

وقد بيّن أثر الفراق في نفسه، وأنه يشكو من هذا الألم، بنفس تبكي كل يوم على ما أصابه من البعد.

أما الأمير إسماعيل بن الأحمر[2]، الذي خرج عن داره وبلده مُضطرًا، فقال: [الكامل]

يُهِيجُ زَفْرَتِي تَذْكَارُ أَرْضِي وَيُفْجِعُنِي وَيَسْتَهِمِي الجُفُونَا

حَنِينِي مَا حَيِيتُ لَهَا عَظِيمٌ وَمَا بِسِوَى مَحَبَّتِهَا بُلِينَا[3]

ابن سعيد أيضًا يتشوق إلى دياره بحمص الأندلس، بقوله: [الكامل]

لَوْلَا تَشَوُّقُ أَرْضِ حِمْصٍ مَا جَرَى دَمْعِي وَلَا شَمِتَتْ بِي الْأَعْدَاءُ

بَلَدٌ مَتَى يَخْطُرْ لَهُ ذِكْرٌ هَفَا قَلْبِي وَخَانَ تَصَبُّرٌ وَعَزَاءُ[4]

وهو يتشوق إلى داره التي وُلد فيها، بل يتشوق إلى كل مدينة، ويعتبر البُعد عنها هو الموت بعينه.

ونختم هذا الباب بابن فركون، هذا الشاعر العملاق، الذي اضطرته صعوبة الظروف إلى الخروج عن دار سكناه، ومغادرة وطنه، فقال أبياتًا تفيض ألمًا وحسرة لما حصل له:

هَلْ بَعْدَ طُولِ تَغَرُّبِي وَفِرَاقِي أَرْجُو اللِّقَاءَ وَلَاتَ حِينَ تَلَاقِ

هِيَ دَارُ أَحْبَابِي وَمَوْضِعُ صَبْوَتِي وَمَحَلُّ جِيرَانِي وَرَبْعُ رِفَاقِي

جَارَ الزَّمَانُ بِبُعْدِهِمْ وَلَعَلَّهُ يَوْماً يُجُودُ بِعَادَةِ الْإِشْفَاقِ[5]

(١) المقري شهاب احمد بن محمد نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٢/ ٦٩٤.

(٢) أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي الأنصاري (٨٠٧هـ). كان مؤرخاً وأديباً وشاعراً من أهل الأندلس، نشأ في غرناطة، ثم انتقل إلى فاس، الإعلام للزركلي، ١/ ٣٢٩.

(٣) ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان، ص: ٢٥.

(٤) ديوان ابن الخطيب الصيب والجهام والماضي والكهام ص: 572، ص: 573.

(٥) ابن فركون: ديوان ابن فركون ص: ١٢٤ ، ص: ٢٥٩.

المبحث الثالث
البناء الفني لشعر الغربة والحنين

انتهج الشعراء الأندلسيون الأساليب الفنية القديمة التي سار عليها مَن سبقهم من شعراء المشرق، فلم يكن الشاعر الأندلسي ليتجاوز في أساليبه الفنية الخصائص المألوفة في الشعر العربي، بل استمر هذا الشعر في ازدهاره وتوسعه حتى شمل مناحي الحياة المختلفة، ومن أبرز تلك الخصائص:

– صدق العاطفة: إنَّ للعاطفة أثرًا بالغًا في الشعر عامة، وفي شعر الحنين خاصة؛ فالعاطفة هي الانفعال النفسي المصاحب للنص، فهي تحرُّكٌ داخليّ، بينما الفكرة شيء عقليّ. والعاطفة لُبّ الفنون وعمادها، وهي المعزف الذي تصدح به أوتار الأدب، وعليه يعزف الأديب.

وصدق العاطفة يعني صدق الشاعر في شعره انطلاقًا من إحساسٍ صادقٍ ألمّ به وعصفَ بمشاعره. فصدق الشعور من أقوى أسباب الإجادة الشعرية، والصدق العاطفي وصدق الاعتقاد عند الشاعر باعث قوي على تفاعل الآخرين مع شعره وتأثرهم به.

لقد فاضت أشعارهم بالشوق والحنين إلى الوطن، وبالألم والعذاب بسبب غربتهم وبُعدهم عن أوطانهم، فخلّف لنا هؤلاء الشعراء شعرًا يتميّز بشكل خاص بصدق العاطفة، وفيض الشعور، وعمق التجربة، ورهافة الحسّ. فهذا الشاعر إبراهيم الساحلي [1] يقول:

وَمَا لِزَمَانٍ نَامَ مُسْتَغْرِقَ الْكَرَى ... فَمَا هَبَّ حَتَّى سَلَّ مَا كَانَ سِلْماً

طَوَانِي الضَّنَا طَيَّ السِّجِلِّ وَشَفَّنِي ... فَلَمْ يَبْقَ مِنِّي السُّقْمُ إِلَّا تَوَهُّماً

وَوَدَّعْتُ خَلِّي وَالشَّبِيبَةَ رَاغِماً ... فَلَمْ أَدْرِ مَنْ أَجْرَى دُمُوعِي مِنْهُمَا[2]

لقد صدرت هذه الأبيات عن قلبٍ محبٍّ لوطنه، وعواطف جياشة ناتجة عن تجربة حقيقية في هموم الغربة، ثم نلمس البُعد ومعاناة الغربة عن الديار في أبيات أبي حيان الغرناطي[3]، يصف غرناطة ويبثّ

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الساحلي الأنصاري، (ت: ٧٤٧ه)، من أهل غرناطة غادر الأندلس لتأدية الحج وأقام في بلدان كثيرة هي مصر والشام والعراق واليمن وبلاد الحجاز، معجم الشعراء العرب، ص: ١٦.

(٢) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢/ ١١.

(٣) أثير الدين أبو حيان، حمد بن يوسف الغرناطي، الجياني الأندلسي. وهو نحويٌّ وعالمٌ لغويٌّ بارزٌ من أهل الأندلس، وُلد في غرناطة عام ٦٥٤ هـ وتوفي في القاهرة عام ٧٤٥ ه، الإعلام للزركلي، ٧/ ١٥٢.

شوقه وشجنه، وهذه الأبيات من أروع النماذج التي يُضرب بها المثل في تعلق الشاعر ببلده، فهو شاعر مرهف الإحساس، مضطرم العاطفة. إذ يقول: [الكامل]

هَلْ تَذْكُرِينَ مَنَازِلاً بِالْأَحْبُلِ وَمَنَازِهاً حَفَّتْ بِشَطِّي شُنَلِ

وَمَشَاهِداً وَمَعَاهِداً وَمَنَاظِراً لِلْقَاصِرَاتِ الْيَعْمَلاَتِ الذُّبُلِ

حَيْثُ الرِّيَاضُ تَفَتَّحَتْ أَزْهَارُهَا فَشَمَمْتُ أَذْكَى مِنْ أَرِيجِ الْمَنْدَلِ

وَالطَّيْرُ تَشْدُو مُفْصِحَاتٍ بِالْغِنَا فَوْقَ الْغُصُونِ النَّاعِمَاتِ الْمِيلِ

فَتُثِيرُ لِلْمُشْتَاقِ دَاءً كَامِناً وَتُذِيلُ صَائِنَ دَمْعِهِ الْمُتَهَلِّلِ[1]

– سهولة الألفاظ: ذهب شعراء الأندلس إلى تخيّر الألفاظ السهلة في أشعارهم، وخاصة في شعر الغربة والحنين؛ فقد دلت ألفاظهم على ذوق سليم في الاختيار، وسعة في لين الكلام، وجزالة في التعبير، رغم محافظتهم على البلاغة والفصاحة، فاختاروا أحسن الألفاظ وقعًا في السمع، وادعاها إلى تصوير الجمال وإيقاظ النفوس.

ومن الأشعار التي اتسمت بالرقة واللين والفصاحة والسهولة، ما قاله ابن خاتمة الأنصاري[2] متشوقًا إلى غرناطة، ومن حلّ فيها من أهله وأحبته وهو بعيد عنها، إذ قال: [البسيط]

كَيْفَ غَرْنَاطَةٌ وَمَنْ حَلَّ فِيهَا حَبَّذَا السَّاكِنُونَ تِلْكَ الدِّيَارَا

كَيْفَ أَحْبَابُ مُهْجَتِي رُوحُ رُوحِي نُورُ عَيْنِي الْجَآذِرُ الْأَقْمَارَا[3]

لقد استخدم ابن خاتمة تعابير دارجة سهلة يفهمها العامي، لكنها مع ذلك اتسمت بالرقة والفصاحة.

وكذلك نجد ابن الزمرك يسوق لأشعاره في الحنين أرقّ الألفاظ وأرشقها، ويتخيّر الألفاظ السهلة، ويضفي عليها شيئًا من ذاته وبيئته، يقول متشوقًا إلى غرناطة وقد عصف الحنين بقلبه: [الكامل]

(١) البلوي خالد تاج المفرق في تحلية علماء المفرق، ص: ٩١.

(٢) أبو جعفر أحمد بن خاتمة الأنصاري الأندلسي،(٧٧٠ ه) وهو شاعر وأديب وعالم من أهل الأندلس، وُلد في غرناطة، م عمر رضا كحالة: عجم المؤلفين، ٢/ ١٩.

(٣) الأنصاري ابن خاتمة ديوان ابن خاتمة، ص: ٦٨.

لَوْلَا تَأَلُّقُ بَارِقِ التَّذْكَارِ مَا صَابَ وَاكِفُ دَمْعِي الْمِدْرَارُ

أَمُذَكِّرِي غَرْنَاطَةَ حَلَّتْ بِهَا أَيْدِي السَّحَابِ أَزِرَّةُ النَّوَّارِ[1]

جاءت أبيات ابن الزمرك في غاية التأنّق والجمال، كما أن ألفاظه كانت سهلة وواضحة، لا غموض فيها ولا تكلّف.

ولعل شيوع ظاهرة الارتجال في الشعر لدى شعراء الغربة دفعهم إلى نظم هذه الأشعار على سجيتها، فجاءت ألفاظهم سهلة وتراكيبهم واضحة، وابتعدوا عن الغموض والإبهام؛ كيف لا، وهي كلمات تخرج من قلوب تعتصرها الآلام، وتفيض بالحنين إلى أرض الوطن والأحبة.

– البديع والأساليب الزخرفية: ازدهر علم البديع في الأندلس، خاصة في القرن الخامس الهجري، ازدهارًا ملحوظًا، حيث حاول شعراء الأندلس مجاراة نظرائهم المشارقة من شعراء العصر المملوكي الذين أسرفوا في استخدامه، لكنهم لم يُفرطوا فيه إفراط المشرقيين، بل استخدموه لخدمة المعاني والتعبير عن الذوق والجمال، لقد شغف الغرناطيون بمختلف أساليب التحسين المعنوي واللفظي، وأبرز ما استخدموه من فنون البديع:

– التورية: هي استعمال لفظ له معنيان، قريب وبعيد[2]، يُراد به المعنى البعيد، وهي من أمتع المحسّنات البديعية.

وقد كثر تداولها في الشعر، بل أفرد بعض الشعراء لها مجموعات شعرية خاصة؛ منهم ابن خاتمة في مجموعته: «رائق التحلية في خالق التورية»[3].

كما تناول ابن جابر الهواري التورية في بديعيته، حيث عمد فيها إلى التورية بسور القرآن الكريم، بأسلوب يميل إلى التكلف أحيانًا، ومن ذلك قوله: [الكامل]

فِي كُنْ فَاتِحَةٍ لِلْقَوْلِ مُعْتَبَرَةٍ حَقَّ الثَّنَاءُ عَلَى الْمَبْعُوثِ بِالْبَقَرَةِ

فِي آلِ عِمْرَانَ قِدْماً شَاعَ مَبْعَثُهُ رِجَالُهُمْ وَالنِّسَاءُ اسْتَوْضَحُوا خَبَرَهُ

(١) المقري شهاب الدين احمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ٢/ ١٧٠.
(٢) ينظر: ابن المنقذ أسامة البديع: في نقد الشعر، ص: ٦٠.
(٣) ينظر: الداية محمد رضوان تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص: ٢٦٩.

بِكَهْفِ رَحْمَاهُ قَدْ لَاذَ الْوَرَى وَبِهِ بُشْرَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الْإِنْجِيلِ مُشْتَهَرَةٌ[١]

ومن مظاهر شغف الغرناطيين بالتورية ما استخدمه ابن جُزي الكلبي[٢]، في إحدى قصائده، حيث قال:

لَقَدْ قَطَعْتَ قَلْبِي يَا خَلِيلِي بِهَجْرٍ طَالَ مِنْكَ عَلَى الْعَلِيلِ

وَلَكِنْ مَا عَجِيبٌ مِنْكَ هَذَا إِذِ التَّقْطِيعُ مِنْ شَأْنِ الْخَلِيلِ[٣]

وفي هذا البيت نجد تورية بين معنى «التقطيع» من مصطلحات العَروض، ومعناه القريب: الهجران والبعد عن الحبيب. وقد جاءت هذه التورية خفيفة بلا تعقيد، ومُعبّرة بلا تكلف.

– الجناس: كان الشعراء الأندلسيون مولعين بالجناس، وهو: تشابه اللفظين في النطق مع اختلاف المعنى، سواء أكان تامًا أو ناقصًا[٤].

وقد تحدّث النقاد عن قيمة الجناس في العمل الفني، وأكدوا أن الجناس إذا جاء غير متكلّف، أكمل المعنى وزاد من جماليته. وتكمن روعة الجناس عند الأندلسيين في الحس الموسيقي الناتج عن تكرار الكلمات[٥].

ومن أمثلته قول ابن الخطيب بعد وقوعه في الأسر، إذ قال:

وَكُنَّا عِظَاماً فَصِرْنَا عِظَاماً وَكُنَّا نُقُوتُ فَهَا نَحْنُ قُوتُ[٦]

(جناس تام: «عظامًا» و«عِظامًا»، و«نقوت» و«قوت»)

وكذلك قول الملك يوسف الثالث:

(١) المقري شهاب الدين احمد نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج٧ ص٣٢٤.

(٢) محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن الجزي الكلبي من أهل غرناطة كان أبوه من أعلام الغربيين وتعانى هذا الأدب فبرز فيه وابتدأ في جمع تاريخ غرناطة فحصل منه جملة مستكثرة، ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ٥/ ٤٢٨.

(٣) ابن الخطيب لسان الدين: الكتيبة، ص: ٩٦.

(٤) ابن منقذ أسامة البديع: في نقد الشعر، ص: ١٢.

(٥) الجرجاني عبد القاهر: أسرار البلاغة، ص: ٨.

(٦) المقري شهاب الدين: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٥/ ١١١.

أَلَا إِنَّ لِي قَلْباً يَحِنُّ لِمَوْطِنِي فَيَا لَيْتَنِي لَوْ صَدَقَ الْخَبَرُ الْخَبَرُ[1]

(جناس ناقص: «الخبر» و«الخَبَر»، «برحت» و«تباريح»)

أَضْحَى الْفُؤَادُ بِسَيْفِ الْبَيْنِ مَجْرُوحاً وَمَدْمَعُ الْعَيْنِ فَوْقَ الْخَدِّ مَسْفُوحاً

سُقْيَا لِغَرْنَاطَةَ وَاللَّهِ مَا بَرِحَتْ تُلْقِي مِنَ الْبُعْدِ فِي قَلْبِي تَبَارِيحاً[2]

وقد ساهم الجناس في إحداث جرس موسيقي خاص، له أثر واضح في نفس المتلقي.

– الطباق: هو الجمع بين الضدّين في الجملة، وهو من أبرز أساليب التحسين المعنوي، ولا يثقل الشعر كما يثقله الجناس، لكن الإكثار منه قد يُضعف المعنى.

ومن أمثلة الطباق في شعر الأندلسيين، ما قاله ابن مالك في وصفه لهموم البعد والنوى:

فَبِالأَمْسِ فِي أَسْحَارِهِ وَبِدَارِهِ وَبِالْيَوْمِ فِي دَارِ الْغَرِيبِ غَرِيبُ[3]

(طباق: «الأمس» و«اليوم»)

وفي قوله لابن فركون متشوقًا إلى وطنه:

هَلْ بَعْدَ طُولِ تَغَرُّبِي وَفِرَاقِي أَرْجُو اللِّقَاءَ وَلَاتَ حِينَ تَلَاقِ[4]

(طباق: «الفراق» و«اللقاء»)

وقد أبرز هذا الطباق قدرة الشاعر على نقل صورة واقعية للغربة والبُعد، ومهارته في تكثيف المعنى بأسلوب بلاغي جذّاب.

بهذا يتبيّن أن شعر الغربة والحنين في الأندلس كان شديد الصلة بالعاطفة الصادقة، وسهولة التعبير، وحسن الصياغة، واستعمال المحسّنات البديعية دون تكلّف، مما جعل هذا اللون من الشعر صورة حيّة لمعاناة الشعراء وحنينهم الصادق إلى الديار والأوطان.

(١) يوسف الثالث: ديوان الملك يوسف الثالث، ص:٦٢ ، ص: ٦٣.
(٢) المصدر نفسه: ص٦٢ ص٦٣.
(٣) المراكشي ابن عبد الملك: الذيل والتكملة ٤/ ١٠٤.
(٤) ابن فركون ديوانه ص ١٤٢.

الخاتمة

في ختام هذا البحث، لا يسعني إلا أن أقول إنني بذلت جهدي في تقديم ما لدي من رأي وفكر حول هذا الموضوع، ساعيًا إلى التعبير عنه بأسلوب علمي شامل وجاد.

ذلك أن موضوع الحنين والغربة في الشعر الأندلسي من الموضوعات الأدبية الغنية، التي تكشف عن أعماق النفس الإنسانية، وتجسّد معاناة الشعراء وآمالهم وآلامهم.

وقد تمخّضت هذه الدراسة عن ملامح واضحة لهذا اللون الشعري، وأسفرت عن مجموعة من النتائج التي تمثل خلاصة ما توصل إليه البحث، ويمكن إجمالها في النقاط الآتية:

١- يُعدّ شعر الحنين والغربة من أبرز الأغراض الشعرية التي برع فيها شعراء الأندلس، وحرصوا على التعبير من خلالها عن مشاعرهم العميقة تجاه الوطن والأهل.

٢- امتاز هذا الشعر بصدق العاطفة وحرارة الوجدان، فكان مرآةً لما يختلج في نفس الشاعر من شوق ولوعة وألم لفقد الوطن وفراق الأحبة.

٣- من أبرز ما يتجلى في هذا الغرض الأدبي: الوفاء بالعاطفة، وصدق الإحساس، والتعبير النزيه عن معاناة الغربة والبعد.

٤- الحنين إلى الأوطان والتأسف على ما جرى من نكبات ونكوص، يُعدّ سمة بارزة في هذا النوع من الشعر، إذ أضفى البُعد القسري عن الوطن بُعدًا شعوريًا صادقًا في أغلب النماذج الشعرية.

٥- شهد غرض الحنين والغربة تطورًا ملحوظًا عبر العصور، إلا أنه بلغ ذروته في الأندلس بفعل الأحداث التاريخية والسياسية، مما أفرز تجربة شعرية ناضجة ومتفردة.

٦- أظهرت الدراسة أن من أهم أسباب شيوع هذا الغرض الشعري: الرحلات الداخلية والخارجية، والسجن، والإبعاد، والاعتقال، وكلها عوامل دفعت الشعراء إلى نظم أشعارهم في الغربة والحنين.

وإنني أرجو أن تكون هذه الدراسة بداية لبحوث أوسع في هذا المجال، تنفتح فيها آفاق جديدة للنظر والتحليل، وتُسهم في إبراز روائع الأدب الأندلسي وكنوزه الإنسانية العظيمة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم
١. إحياء علوم الدين: الغزالي، أبو حامد (ت ٥٠٥هـ)، دار صادر-بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
٢. الأخلاق الإسلامية وأسسها: الميداني، عبد الرحمن - دار العلم-سوريا.
٣. الأخلاق في الإسلام: جبر، محمد أمين - مكتبة الشروق الدولية-القاهرة، ٢٠١٣م.
٤. الأخلاق في السنة النبوية: الشمري، هدى جواد - دار المناهج للنشر-الأردن.
٥. أدب الرحلة في التراث العربي: قنديل، فؤاد - مكتبة الدار العربية للكتب.
٦. أزمة أخلاق: زين العابدين، محمد سرور - لندن، ١٤٢٠هـ.
٧. الأساس في التفسير: حوى، سعيد - دار السلام-القاهرة، ١٤٢٤هـ.
٨. أسباب النزول: الواحدي، علي بن أحمد (ت ١٠٨٠هـ) - دار الكتب-بيروت، ١٩٨٤م.
٩. تاريخ التشريع الإسلامي: مناع بن خليل القطان (ت ١٤٢٠هـ)، مكتبة وهبة، ط/٥، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م
١٠. التاج العروس من جواهر القاموس: الزَّبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٢٨هـ)، تح: جماعة من المختصين، وزارة الإرشاد والأنباء-الكويت، ط٢، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.
١١. التسامح في الإسلام: أبو خليل، شوقي - دار الفكر المعاصرة-بيروت.
١٢. تفسير ابن كثير: ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، تح: محمد شمس الدين، دار الكتب-لبنان.
١٣. تفسير القرطبي: القرطبي، يوسف (ت ٦٧١هـ)، تح: أحمد البردوني، دار الكتب المصرية-القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.
١٤. تفسير المراغي: المراغي، أحمد مصطفى (ت ١٣٧١هـ)، مطبعة مصطفى البابي-القاهرة.
١٥. التقوى: تعريفها وفضلها...: الأشقر، عمر - دار النفائس-عمان، ٢٠١٢م.
١٦. تقوى: ماردينى، صلاح الدين - المكتب الإسلامي.
١٧. تهذيب الأسماء واللغات: النووي، يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ) - المنبرية-بيروت.
١٨. تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) -مجلس دائرة المعارف-حيدر آباد.
١٩. تهذيب اللغة: الأزهري، حسن (ت ٣٧٠هـ) - الدار المصرية للتأليف-القاهرة، ١٩٦٧م.
٢٠. توالي التأسيس: ابن حجر العقلاني (ت ٧٧٢هـ) - دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٨٦م.

٢١. ثمار القلوب: الثعالبي، عبد الملك (ت ٤٢٩هـ) - دار المعارف-القاهرة.
٢٢. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، شمس الدين (ت ٦٧١هـ) - إحياء التراث-بيروت، ج١٣.
٢٣. جمهرة اللغة: ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ)، تح: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين-بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
٢٤. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي-القاهرة، ط٤، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٢٥. الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين-بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
٢٦. صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، صادر عن المكتبة الشاملة.
٢٧. صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، صادر عن المكتبة الشاملة.
٢٨. القاموس المحيط: الفيروزآبادي، أبو طاهر (ت ٨١٧هـ)، تح: مكتب تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر-بيروت، ط٨، ٢٠٠٥م.
٢٩. كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة: ابن رجب الحنبلي، زين الدين (٧٣٦-٧٩٥هـ)، تح: أبي مصعب طلعت الحلواني، دار الفاروق الحديثة-بيروت، ط٢، ٢٠٠٣م.
٣٠. لسان العرب: ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، تحاشي لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر-بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
٣١. النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، مجد الدين (ت ٦٠٦هـ)، تح: طاهر أحمد الزاوي، المكتبة العلمية-بيروت، ١٩٧٩م.